منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال وسبب تسميتهم

قال المؤلف –رحمه الله تعالى–:

(ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، حَيثُ قَالَ: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ)، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الإِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ. وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِينِ. وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلافُ، وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةِ.)[1].

(الشرح)

هذا فصل مهم يتعلق بمنهج الاستدلال؛ فإن من كمال فهم عقيدة أهل السنة والجماعة معرفة مصادرهم في الاستدلال، وطريقتهم فيه.

قوله: (ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بَاطِنًا وَظَاهِرًا):

من أخص خصائص أهل السنة والجماعة "الاتباع"، قال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٣]، وقال: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: ٣١]، وقال: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [الأعراف: ١٥٨]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

---

[1] أخرجه ابو داود: رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: رقم (٤٣)، وأحمد: رقم (١٧١٤٤)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٥)، والحاكم في المستدرك: (٣٢٩).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حديث صحيح ليس له علة.

والمقصود بالأمور الباطنة: مسائل الاعتقاد العلمي والعملي، وبالأمور الظاهرة: الشرائع التعبدية؛ من الأقوال والأفعال، فأهل السنة والجماعة أسعد الناس بسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، فلا يبلغهم شيء عن نبيهم، صلى الله عليه وسلم، إلا تمسكوا به، وحرصوا على تطبيقه، ولم يكن من دأب السلف أن يقولوا: أواجب هذا، أم سنة؟ محرم هذا، أم مكروه؟ إنما وقع هذا في المتأخرين، أما السلف الصالح فإذا علموا شيئًا من سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، فعلوه، ولم يدخلوا في حيل ومماكسات، بل يعملون بقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ)[1]؛ قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: ٢١]، وهذا يفسر استثقال بعض الناس سنة النبي، صلى الله عليه وسلم، وفرح آخرين بها؟، فمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرًا، طابت نفسه، وقرت عينه، وسهل انقياده، ومن ضعفت عنده هذه المعاني ثقل عليه اتباع السنة، ودخل في مماكساتٍ، وتتبعٍ للرخص، والفتاوى الشاذة.

وهل يدخل في اتباع آثار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الآثار الحسية؛ بأن يقصد الإنسان المواضع التي نزل فيها النبي، صلى الله عليه وسلم، فينزل فيها؟ والمواضع التي قضى فيها حاجته، فيقضي فيها حاجته؟ وقع هذا من عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، فكان يتحرى ذلك في أسفاره، والظاهر أن هذا لا يدخل في دائرة الاتباع المشروع؛ لأن هذا وقع منه، صلى الله عليه وسلم، بحكم الطبيعة، والجِبلة، ومقتضيات الحال، لا بحكم الدين والتعبد.

وما فعله، صلى الله عليه وسلم، بمقتضى الجِبِلّة؛ كالأكل والشرب والنوم، فلا حكم له بحد ذاته، ولكن قد تتعلق به سنة؛ لسبب، أو وصف، وكذلك ما فعله، صلى الله عليه وسلم، بحسب العادة؛ كالملبس، والمركب، والمسكن، فلا حكم له بحد ذاته، لكن تتعلق به سنة؛ لسبب، أو وصف، كما هو مبسوط في كتب أصول الفقه؛ فالاتباع المقصود هو ما يتعلق بالعقائد الباطنة، والشرائع الظاهرة.

قوله: (وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ): ثمّ سبيلان: قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]، وقال: {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام: ٥٥]؛ فالواجب اتباع سبيل المؤمنين، ومجانبة سبيل المجرمين، وقد استدل المصنف بوصية النبي، صلى الله عليه وسلم:

---

[1] أخرجه البخاري: رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: رقم (١٣٣٧)، واللفظ له.

قوله: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي): وسنة النبي، صلى الله عليه وسلم: كل ما أضيف إليه من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة.

قوله: (وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ): الخلفاء الراشدون: هم من خلف النبي، صلى الله عليه وسلم، في أمته، بالعلم النافع، والعمل الصالح، ويدخل فيهم الخلفاء الأربعة دخولًا أوليًا، ويدخل في ذلك: العلماء، والأمراء الصالحون؛ كعمر بن عبد العزيز –رحمه الله، والإمام أحمد بن حنبل، والشافعي، ومالك، وسفيان، والأوزاعي، وأمثالهم، ممن أطبقت الأمة على فضلهم، والثناء عليهم؛ فهم خلفاء راشدون.

قوله: (تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ): التمسك يكون بالأيدي، والعض يكون بالنواجذ، والنواجذ: آخر الأضراس؛ كناية عن شدة التمسك، والعمل.

قوله: (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ): ذلك أن اقتصادًا في اتباع خيرٌ من اجتهاد في ابتداع؛ فلا فائدة أن يستكثر الإنسان من عمل بدعي، لأنه لا يزيده من الله إلا بعدًا؛ فالبدعة مذمومة، بكل حال.

وقد بيّن الرسول، صلى الله عليه وسلم، البدعة بقوله: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْس مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)[١]، وقوله: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْس عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)[٢]؛ فكل إحداث في الدين فهو بدعة، وعرفها الشاطبي، رحمه الله، بتعريف أصولي فقال: (طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى)[٣].

– فقوله: (طريقة في الدين): تخرج أمور الدنيا؛ فلا تتعلق بالمساكن، والمراكب، والملابس، إلا أن يكون لوصف من الأوصاف، كالنهي عن ثوب الشهرة، أو لبس الأحمر والمعصفر للرجال، أو الضيق والعاري والشفاف للنساء.

– وقوله: (مخترعة): يعني على غير مثال سابق.

– وقوله: (تضاهي الشرعية): يعني تماثل الأشياء المشروعة، لأن المبتدعة يحدثون أمورًا تشابه العبادات المشروعة؛ ليسلّكوها بين العامة: كإحداثهم الاحتفال بالمولد النبوي. – قوله: (يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى) قصد مبتدعها بالتزامها المبالغة في العبادة، وكل من أحدث بدعة،

---

[١] أخرجه البخاري: رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: رقم (١٧١٨).

[٢] أخرجه مسلم: رقم (١٧١٨).

[٣] الاعتصام للشاطبي: (ص٤٧).

فقد هدم سنة، وفي الصحيح غنية عن الضعيف، والشيطان إذا لم يظفر من العبد بشرك أكبر، ولا أصغر، أوقعه في البدعة؛ فإن البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية.

والبدع أنواع ومراتب: فمنها بدع مكفرة، وبدع مفسقة، ومنها بدع اعتقادية، وبدع عملية، وبسط هذا يطول؛ فينبغي لطالب العلم أن يميز بين البدع، فالبدعة التي تتعلق بأمر عقدي، كبدعة الخوارج، والقدرية، والمرجئة، ليست كبدعة من أحدث أوراداً، أو اتخذ سبحة، أو خرقة؛ وكلها مردودة على أصحابها، لكن يُفرق بين ما يتعلق بأصل الدين وأُسِّه، وبين ما يتعلق بالسلوك، فيُعطى كل شيء ما يستحقه.

قوله: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم): قال تعالى: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: ٨٧]، وقال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: ١٢٢]، وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ»، وَيَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ)[1]، وينبغي لطالب العلم أن يستهل الخطب، والدروس، والمواعظ، بهذه الكلمات، ونحوها.

قوله: (وَيُؤْثِرُونَ كَلامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ): قال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، وقال: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [النور: ٥١].

فمن أعظم خصائص أهل السنة والجماعة تعظيم النصوص، وتقديمها على الآراء، وأقوال الرجال، وهذا أمر ينبغي أن يتفطن له طالب العلم خاصة، فإذا أردت أن تقرر أمراً من الأمور فابدأ بذكر الآيات، وثنّ بذكر الأحاديث، ثم اذكر كلام أهل العلم، ثم تكلم بما يفتح الله عليك؛ فلابد من تعظيم كلام الله، وتعليق الناس به، والتعويل عليه، وهذا هو ما يسمى: "بالتأصيل"، فإن التأصيل هو الرد إلى الأصول.

كما أن من شأن أهل السنة والجماعة العناية بالآثار النبوية، والأحاديث المحمدية؛ فهم أهل الرواية والدراية؛ ولهذا لم يزل أهل السنة والجماعة يشتغلون بطلب العلم، والرحلة في طلب الحديث، وتدارسه، وروايته، وتحمله وأدائه؛ فهم أسعد الناس بهذا الوصف؛ ولهذا سموا أهل الكتاب والسنة،

---

[1] أخرجه مسلم: (٨٦٧).

لكونهم يُؤثرون كلام الله على كلام كل أحد، ويُقدّمون هدي محمد، صلى الله عليه وسلم، على هدي كل أحد.

قوله: (وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الإِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ): هذا لقب آخر من ألقاب أهل الحق، وهو "الجماعة"، وقد بيّن المصنف، رحمه الله، سبب التسمية، وأنها مستمدة من الاجتماع المنافي للفرقة، وليس للقوم المجتمعين على أي حال.

فمن أصول أهل السنة والجماعة: الدعوة إلى الوحدة والائتلاف، وذم الفرقة والاختلاف؛ قال الله عز وجل: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣]، وقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا} [آل عمران: ١٠٥]، وقال {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]، فلم يزل أهل السنة والجماعة يجتمعون على الحق، ويدعون غيرهم إلى ذلك، ولم يزل أهل البدع أهل شذوذ، وفُرقة، وخروج عن الجماعة.

وعلى طالب العلم أن يدرك هذا المقصد الأصيل، في طريقة أهل السنة والجماعة، فلا يكون معْوَل هدم، ولا سبب تَشْظٍّ في الأمة، وقد يوجد في بعض طلاب العلم من يحب الشقاق، والتنابز بالألقاب، وتفريق الأمة، وتصنيف الناس، حتى في المسائل الاجتهادية؛ التي يسوغ فيها الخلاف، لكن أهل السنة الراسخين يميزون بين ما يكون موجبًا للمفاصلة، وما بين ما يحتمل فيه الخلاف؛ فعليك، يا طالب العلم، أن تكون عاقلًا حكيمًا لبيبًا، وألا تحشر المخالفين في خندق واحد؛ عليك أن تفرق بين ما يستحق أن تنتصب لذمّه، والتحذير منه، ومن أصحابه؛ من أهل البدع المحققة، وبين ما يكون من جنس الأمور الاجتهادية الفرعية، التي تختلف فيها الأنظار، فتلتمس الأعذار، ولا يمنعك ذلك من أن تقول الحق، وتدعو إليه.

ينبغي للعالم اللبيب أن يكون: "قويًّا في الحق، رفيقًا بالخلق"؛ فإذا جمع هذين الوصفين نفع الله به نفعًا عظيمًا؛ لأنه إن كان قويًّا في الحق، على فظاظة وشدة، نفر الناس منه، وإذا كان رفيقًا مجاملًا على حساب العلم، لم يحصل المقصود؛ يجب أن يكون الخطاب واضحًا، والأسلوب رفيقًا.

قوله: (وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدين): الإجماع عند الأصوليين: (اتفاق علماء أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، بعد وفاته، على مسألة من المسائل في عصر من العصور)[1]؛ فإذا انعقد اكتسب الحكم صفة القطعية؛ لأن الله لا يجمع الأمة على ضلالة، فقد جعل

---

[1] انظر: إرشاد الفحول: (٧١).

العصمة في سبيل المؤمنين، كما تقدم، وقد جاء في الحديث المشهور: (إِنّ أُمّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ)[١].

قوله: (فَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ): هذه المعايير الثلاثة: الكتاب، والسنة، والإجماع، ميزان دقيق، وقسطاس مستقيم؛ يعول عليها أهل السنة والجماعة، ويردون إليها مسائل النزاع، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: ٥٩]، بخلاف غيرهم، من أهل الأهواء:

- فمنهم من ينصب "العقل" ميزانًا، ولا يرفع رأسًا بالآثار، وهم المتكلمون.
- ومنهم من يتخذ "الذوق"، و "الوجد"، و "الكشف" ميزانًا، وهم الصوفية.

وجميعها موازين طائشة، غير منضبطة؛ تختلف باختلاف العقول والأذواق.

قوله: (وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةِ): الإجماع عزيز! فالمنضبط منه ما كان في صدر هذه الأمة، ثم تعذر انعقاده لعلتين:

- كثرة الاختلاف، وتعدد المذاهب والأقوال.
- انتشار الأمة في أقطار الأرض، وصعوبة الإحاطة بالمقالات.

وروي عن الإمام أحمد أنه قال: (من ادعى الإجماع فهو كاذب)[٢]، فلعله يريد بذلك ما جرى بعد انتشار الأمة في الآفاق، وتفرق العلماء في الأمصار، أو أنه، رحمه الله، قصد قضايا أعيان، كان المعتزلة يدّعون فيه الإجماع لترويج باطلهم؛ قال ابن القيم، رحمه الله: (قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ: مَنِ ادَّعَى الْإِجْمَاعَ فَقَدْ كَذَبَ، لَعَلَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا. هَذِهِ دَعْوَى بِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ وَالْأَصَمِّ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَعْلَمُ النَّاسَ اخْتَلَفُوا. قَالَ فِي رِوَايَةِ الْمَرُّوذِيِّ: كَيْفَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: أَجْمَعُوا! إِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: أَجْمَعُوا فَاتَّهِمْهُمْ. لَوْ قَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ لَهُمْ مُخَالِفًا جَازَ. وَقَالَ فِي رِوَايَةِ أَبِي طَالِبٍ: هَذَا كَذِبٌ مَا أَعْلَمُهُ أَنَّ النَّاسَ مُجْمِعُونَ؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَعْلَمُ فِيهِ اخْتِلَافًا. فَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ إِجْمَاعَ النَّاسِ. وَقَالُوا فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْحَارِثِ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَ الْإِجْمَاعَ، لَعَلَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا.

---

[١] أخرجه أبو داود: رقم (٤٢٥٣)، والترمذي: رقم (٢١٦٧)، وابن ماجه: رقم (٣٩٥٠) واللفظ له.

قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. قال المباركفوري: الحديث قد استدل به على حجية الإجماع، وهو حديث ضعيف، لكن له شواهد. انظر تحفة الأحوذي: (٦ / ٣٢٢).

[٢] انظر: الإحكام للآمدي: (١/ ١٧٠)، وتيسير التحرير: (٣/ ٢٤٠).

وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِهَذَا اسْتِبْعَادَ وُجُودِ الْإِجْمَاعِ، وَلَكِنَّ أَحْمَدَ وَأَئِمَّةَ الْحَدِيثِ بُلُوا بِمَنْ كَانَ يَرُدُّ عَلَيْهِمُ السُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَى خِلَافِهَا)[1].

وهل يمكن أن ينعقد الإجماع الآن؟ ربما أمكن تفادي العلة الثانية؛ انتشار الأمة، لتوفر وسائل الاتصال الحديثة والسريعة، لكن تبقى العلة الأولى؛ كثرة الاختلاف؛ فقد تمذهب الناس، وحُفظ الخلاف.

[1] مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: (ص: ٦١١-٦١٢).